تنوع الوُجُوه في القرآن الكريم

دراسة بلاغية

د. مُحَمَّد عبد السَّلام مُحمَّد سُوَيسي*

الحمد لله الذي أنـزل كتابَـهُ القـرآن معجـزًا، وآيـةً عظيمـةً تـدلُّ علَيـه، ومـن إعجازه ما فيه من جمال بيانيّ وبلاغةٍ راقية، والصلاةُ والسَّـلام علـى رسُـولِنا محمّـدٍ خاتم النبيّين والمرسلين، مَنْ خَصَّه الله بالكتاب الخاتم المعجز، فأنزلَهُ عليه وتكفَّـلَ بحفظهِ مِنَ التغيير والتبديل والزيادة والنقصان، فهيّأ له من وسائلِ الحفـظِ مـا جَعَلـهُ باقيًا.

أما بعدُ، فإنَّ الوجْهَ هو الجزء الوحيد في جسمِ الإنسان الذي يُظهـر مـا عليـه صاحبه من سعادة وحـزن وطمأنينـة وسـكينة، وغيرهـا، فهـو مـرآة للـنَّفس، وعليـه تنعكس حالاته العاطفية والوجدانية، وكل ما يتَّصل بشعوره ووجدانـه، وقـد وصـف القرآن الكريم حال الوجوه في الدنيا والآخرة، ورأينا فيـه تنوعًـا وتعـددًا للعلامـات التي تظهر على وجوه الناس، وقد جاء هذا الوصف ببلاغة رائعة لا ترقى إلى مِثْلـها بلاغةُ جميع البلغاء، ولا فصاحة جميعِ الفصحاء.

ومن هنا جاءت أهمية هذا البحث من حيث إنه يُبين أثر الدراسـات البلاغيـة في الكشف عن أسلوب القرآن في تنوع العلامـات الـتي ظهـرت علـى الوجـوه في المشهدين: الدنيوي والأخروي، وذلك بمنهج وصفي تحليلي للآيات الـتي ورد فيهـا

* جامعة المرقب، كلية الآداب.

ذِكْرُ الوجوه.

ولمعرفة هذا التنوع ودقة القرآن في تصوير وجوه الناس، وبيان الحالات النفسية لأصحابها، قسَّمْتُ البحث إلى: تمهيد، تناولت فيه التعريف بالوجه، ومبحثين: الأول جاء ليتناول تنوع الوجوه في الدنيا، والآخر عن تنوع الوجوه في الآخرة.

التمهيد: مفاهيم الوجه

1. في معجمات اللغة

يتبيَّن من استقراء مادة: (و ج ه) في معجمات اللغة أنَّ أصلها الذي فُرّعت منه هو أصلٌ واحدٌ يدلُّ على مقابلةٍ لشيء، وأنَّ هذه الدلالة تربط مفردات المادة كلها[1]، ويتجلّى ذلك في الاستعمالات التي وردت فيها تلك المادة، ومنها:

- الوجه: مستقبِلٌ لكلِّ شيء، يقال: وَجْه الرّجلِ وغَيره.
- وربَّما عُبِّر عن الذَّات بالوَجْه، تقول: وَجْهي إليك. قال الشاعر:

أَسْتَغْفِرُ اللهَ ذَنْبًا لستُ مُحْصِيَهُ ربَّ العِبادِ إليه الوَجْهُ والعَمَلُ[2]

- والوَجْهُ: المُحيَّا، وقوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ [الروم: 30] أَي: اتَّبِع الدِّينَ القيِّمَ، وأَراد: فأَقيموا وجوهكم، يدلُّ على ذلك قوله: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ ﴾ [الروم: 31] والمخاطَبُ النبيُّ ﷺ والمراد: هو والأُمَّةُ، والجمع: أَوْجُهٌ ووُجُوهٌ.
- وواجهتُ فلانًا: جعلتُ وجهي تِلقاءَ وجهه.

1- مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، 1979م 6: 88: (وجه).

2- البيت من البسيط، بدون نسبة في: الكتاب، سيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت 1: 37، وأدب الكاتب، ابن قتيبة، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، مصر، ط4، 1963م: 419، وخزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، البغدادي، قدم له: د. محمد نبيل طريفي، إشراف: د. أميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998م3: 106.

- والمُواجَهة: استقبالُك الرجل بكلامٍ أو وَجْهٍ.
- والوجيهُ: بيِّنُ الجاه، ووُجُوهُ القوم: سادتهم، واحدهم وَجْـهٌ، وكـذلك وُجَهَـاؤهم واحدهم وَجِيهٌ.
- ويُقال: أتيتُه بوجْهِ نَهار؛ أي: في أوّله، ومنه قوله:

مَنْ كَانَ مَسْرُورًا بِمَقْتَلِ مَالكٍ فلْيَأْتِ نِسْوَتَنا بوجْهِ نَهارِ[3]

- وقال الأصمعي: وجَهتُ فلانًا: ضربتُ وجْهَه فهو مَوْجُوهٌ.
- والوجهةُ والوُجهةُ: القِبلة، وشبهتها في كـل وجهـة؛ أي: في كـل وجـه اسـتقبله، وأخَذت فيه.
- والتَّوجيه: أن تَحفِر تحت القِثَّاءَة أو البِطِّيخة ثم تُضجِعَها، وقال أبـو عبيـد: قـال الخليل في قوافي الشعر: التأسيس، والتوجيه، والقافية، وذلك مثل قول النابغة:

كِلـيني لِهَـمٍّ يـا أُمَيْمـةَ نَاصـبِ[4]

- وتَوجَّهَ الشَّيْخُ: ولَّى وأدبَر، كأنَّه أقْبَلَ بوجهه على الآخر، ويقال للرجـل إذا كَبِـر سنُّه: قد تَوَجَّه.
- ويُقال للمُهْر إذا خَرَجَتْ يداه من الرّحم: وَجِيهٌ[5].

2. في كتب الحديث

تنوَّعت لفظة (الوجوه) في حديثِ رسول الله ﷺ فجاءت بعـدة معـانٍ حسـب سياق ورودها، نذكر من ذلك:

3- البيت من الكامل، للربيع بن زياد العبسي في: الأغاني، الأصـفهاني، تحقيـق: سمـير جـابر، دار الفكر، بيروت، ط2 (د، ت)17: 199، وخزانة الأدب7: 363.

4- صدرُ بيت من البسيط، في ديوانه، تحقيق: محمد أبي الفضـل إبـراهيم، دار المعـارف، القـاهرة، ط2: 40، وعجزه: وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكب.

5- ينظر: معجم مقاييس اللُّغة 6: 88-89، ولسان العرب، ابن منظـور، دار صـادر، بـيروت، ط1 (د، ت)13: 555 (وجه).

- أنه كانَت وُجُوهُ بيُوت أَصحابِهِ شارعةً في المسجد؛ أَي: كانت أَبواب بيوتهم في المسجد، فقال رسول ﷺ: «وَجِّهُوا هَذِهِ البيوتَ عَنِ المَسْجِدِ» ولما دَخَلَ النَّبِي ﷺ وَلَمْ يَصْنَعِ الْقَوْمُ شَيْئًا، رَجَاءَ أَنْ تَنْزِلَ فِيهِمْ رُخْصَةٌ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ بَعْدُ، فَقَالَ: «وَجِّهُوا هَذِهِ الْبيوتَ عَنِ الْمَسْجِدِ؛ فَإِنِّي لاَ أُحِلُّ الْمَسْجِدَ لِحَائِضٍ وَلاَ جُنُبٍ»[6].
- وقال رسول الله ﷺ: «لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللَّهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ»[7] وهنا أَراد بالوُجوهِ القلوب؛ أَي: اختلاف القلوب، ووقوع العداوة والبغضاء بينها، وهو كحديثه في النهي نفسِه: «اسْتَوُوا وَلاَ تَخْتَلِفُوا، فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُم»[8] أَي: هَوَاها وإرادَتُها.
- ومنه أنه ﷺ أَخَذَ بِيَدِ عبدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ، فَوَجَدَهُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَأَخَذَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَوَضَعَهُ فِي حِجْرِهِ فَبَكَى، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: أَتَبْكِي؟ أَوَلَمْ تَكُنْ نَهَيْتَ عَنِ الْبُكَاءِ، قَالَ: «لاَ، وَلَكِنْ نَهَيْتُ عَنْ صَوْتَيْنِ أَحْمَقَيْنِ فَاجِرَيْنِ: صَوْتٍ عِنْدَ مُصِيبَةٍ خَمْشِ وُجُوهٍ، وَشَقِّ جُيُوبٍ وَرَنَّةِ شَيْطَانٍ»[9].

المبحث الأول: تنوّع وجوه النَّاس في الدنيا

تنوَّعت العَلامات التي ارْتسمت على وجوه الناس في الحياة الدُّنيا في القرآن الكريم، بحيث كان منها: الوجوه السعيدة، والوجوه الشَّقية، وهذا التنوع ظهرت فيه هذه العلامات عبر ألفاظ خاصة، لها دلالات وأغراض بلاغية، نعرض لها من

6- رواه أبو داود في سننه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، باب: فِي الْجُنُبِ يَدْخُلُ الْمَسْجِدَ، رقم الحديث: 232.

7- رواه البخاري في صحيحه، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط3، 1987م، باب: تسوية الصفوف عند الإقامة وبعدها، رقم الحديث: 685.

8- رواه مسلم في صحيحه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، رقم الحديث: 122.

9- رواه الترمذي في سننه، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، رقم الحديث: 1005.

خلال السِّياق الآتي:

المطلب الأول: وجوهُ السُّعداء في الدنيا

تنوَّعت وجوه السّعداء في الدنيا في القرآن الكريم إلى صِنْفين من الوجوه: وجوهٌ عابِدةٌ حسنة، ووجوه متشوقة، وسنعرض الصِّنفين في السِّياق الآتي:

أولاً: الوجوهُ العابدة الحسَنة

قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: 29].

ذُكرت الوجوهُ ضمن هذه الآية التي تُمثِّلُ حال الرسول ﷺ والذين معه من أصحابه ﷺ في زيادتهم إلى أن قووا واستحكموا بزرعٍ أثمرَ وأينعَ، ثم قويَ وغلظَ، ثم استوى واستقامَ، حتى أعجب الزرَّاع.

فالسِّيما لغة في قريش، ومنَ العربِ مَنْ يقول: بسيمائهم، فيمدّها، وأما ثقيف وبعض أسَدٍ، فإنهم يقولون: بسيميائهم[10]، والسِّيما من الوَسْم، وهو: «التأثير، والسمة: الأثر، يُقال: وسمتُ الشيءَ وَسماً: إذا أثرتَ فيه بِسِمَةٍ»[11].

وهي تكون في الوجه وفي غيره، إلا أنها ذكرت في هذه الآية مقرونة بالوجهِ، وقد اختلف المفسرون فيها على ستةِ أقوالٍ لخَّصَها لنا صاحب التسهيل في الآتي:

الأول: أنه الأثر الذي يحدث في جبهةِ المُصلِّي من كثرة السجود.

الثاني: أنه أثر التراب في الوجهِ.

الثالث: أنه صفرةُ الوجه من السَّهر والعبادة.

الرابع: حسن الوجه، لما ورد في الحديث «مَنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ بِاللَّيْلِ، حَسُنَ وَجْهُهُ

10- ينظر: لسان العرب12: 314 (سوم) وجامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة5: 594.

11- مفردات ألفاظ القرآن، الأصفهاني، دار القلم، دمشق (د، ت)2: 517.

بِالنَّهَار »[12]، وهذا الحديث غير صحيح؛ بل وقع فيه غلط من الراوي، فرفعه إلى النبي ﷺ وهو غير مروي عنه[13].

الخامس: أنه الخشوع.

السَّادس: أنَّ ذلكَ يكون في الآخرة، يجعلُ الله لهم نُوراً مِن أثر السجود، كما يجعلُ غرة من أثر الوضوء، وهذا بعيد؛ لأنَّ قوله: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ وصف حالهم في الدنيا، فكيف يكون سيماهم في وجوههم كذلك؟ والأوَّلُ أظهر[14]، وهو وصف وجوههم العابدة في الدنيا.

وهذه السِّيما من أثر سجودهم في الصَّلاة في الدنيا تبدُو ظاهرةً في وجوههم يوم القيامة.

واختار لفظ الوجوه؛ لأنه الجزء منَ الإنسان الذي يظهر عليه الوضاءة والصَّبَاحة وغيرهما من المعاني التي تظهر على الوجْه، واختار السجود؛ لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية لله.

ثانيًا الوجوه المتشوقة

قال تعالى: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: 144].

في هذه الآية نرى وجُوهًا تقلّب بصرها في الدّنيا في جميع الجهات؛ شوقًا وانتظاراً لنزول الوحي؛ لتحويلِ جهة القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة. وهذه الآية جمعت من فنون البَلاغة ما جمعت، مِن ذلك أنه بدأ الآية بـ(قد) التي تُفيد التحقيق، « ولمَّا كان علم الله بذلك ممَّا لا يَشُك فيه النبي ﷺ حتى يُحتاجَ لتحقيق الخبر به، كان الخبر به -مع تأكيده- مُستعملاً في لازمِه على وجه الكناية؛

12- رواه ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، باب: ما جاء في قيام الليل، رقم الحديث: 1333.

13- أكَّد ضعفه الألباني بقوله: « ضعيف ». ينظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، دار المعارف، الرياض، ط1، 1992م 10: 169.

14- ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل، الغرناطي الكلبي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1983م 4: 56.

لدفعِ الاستبطاء عنه، وأن يُطَمئِنه؛ لأنَّ النبي كان حريصًا على حصوله، ويَلزم ذلكَ الوعدُ بحصوله، فتحصل كنايتان»[15].

وثمَّة لطيفة بلاغية أخرى وقعت في نظم الآية في التعبير بالفعل المضارع مَعَ (قد) وذلك للدلالة على التجدد، والمقصود تجدّد لازمِه؛ ليكونَ تأكيداً لذلك اللازم، الذي هو الوعد المُنتظر حصوله.

والمراد بتقليب الوجه: الالتفات بالوجه، وترديده في جهة السماء، وفي ذلك تشويق لنزول الوحي بالتحويل، وجاء بصيغة (تفعّل) للدلالةَ على معنى التكثير في هذا التحويل، قال ابن عاشور: «وفيه نظر، إذ قد يكون ذلك لمَا في هذا التحويل من الترقب والشدة، فالتفعيل لقوة الكيفية»[16].

والتعبير بتقليبِ الوجه دون طلب التحويل فيه يدلُّ على حُسن أدب الرسول ﷺ مع ربه؛ لأنه لم يسأل؛ بل انتظر وقلَّب وجهه، أو إنَّ تقليب وجهه في السماء فيه كناية عن دُعائه لربه.

والفاء في ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ تفيد التعقيب، والغرض منها: تأكيدُ الوعد بالصَّراحة بعد التمهيد لهَا بالكناية في قوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾ وهذا يُفيد أن تولية وجهه للكعبة سيحصل عقب هذا الوعد، وقد أكد حصوله بأداتي التوكيد والتعقيب[17].

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ الأمرُ هنا أمر حقيقي، وتخصيصُه بالوجهِ؛ «لأنَّه مدارُ التوجه ومعيارُه، وقيل: المراد به كلُّ البدن؛ أي: فاصرفْه»[18]، وأراد به جملة البدن؛ لأن الواجب استقبال الكعبة بجملة البدن، وفي ذلك كناية بالوجه عنِ الجملة؛ لأنه أشرف الأعضاء، وبه يتميز بعض الناس عن بعض، وقد يطلق ويراد به الشيء

15- التحرير والتنوير، ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997م 2: 26-27.
16- التحرير والتنوير2: 27.
17- ينظر: المصدر السابق.
18- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د، ت)1: 174.

نفسه[19].

والشَّطْر: الجهةُ والناحية[20]، وفُسِّر بأنه وسَط الشيء؛ لأن الشطر يطلق على نصف الشيء، فلمَّا أضيف إلى المسجد، والمسجد مكان اقتضى أن نصفه عبارة عن نصف مقداره ومساحته وذلك وسطه، وجُعِل شطرُ المسجد الحرام كناية عن الكعبة؛ لأنها واقعة من المسجد الحرام في نصف مساحته من جميع الجوانب؛ أي: تقريبًا[21]، وذكر الزمخشري أن: «ذكر المسجد الحرام دون الكعبة دليل في أن الواجب مراعاة الجهة دون العين»[22].

وفائدة ذكر قوله: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ قبل قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ -وكان يُمكنه أن يقولَ: «قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَام»- إظهارُ الاهتمام برغبة الرسول ﷺ[23].

وجاء الخطاب بالتّولية خاصًّا وعامًّا؛ أمَّا خطابه الخاص فتشريفٌ له وإيجابٌ لرغبته، وأما خطابه العام بعده، فلأنه كان يجوز أن يعتقد أن هذا أمر قد خُصَّ عليه الصلاة والسلام بهِ، كما خصَّ في قوله: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ [المزمل: 2] ولأنه لمَّا كان تحويل القبلة أمرًا له خطر، خصَّهم بخطاب مفردٍ؛ ليكون ذلك أبلغ، وليكونَ لهم في ذلك تشريف، ولأن في الخطاب العام تعليق حكم آخر به[24].

وأما قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ ففيهِ قراءتان، كل قراءةٍ تحمل غرضًا بلاغيًّا:

19- ينظر: البحر المحيط، أبو حيان، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، ود. زكريا عبد المجيد النوقي، ود. أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001م 1: 603.

20- ينظر: لسان العرب4: 407 (شطر).

21- ينظر: التحرير والتنوير2: 28.

22- ينظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د، ت)1: 229.

23- ينظر: التحرير والتنوير2: 28.

24- ينظر: الكشاف1: 230.

القراءة الأولى: قراءة الجمهور بياء الغيبة ﴿يَعْمَلُونَ﴾[25] والضميرُ فيها راجعٌ للذين أوتوا الكتاب؛ أي: عن عملهم بغير ما علموا، فالمرادُ بما يعملون هذا العملَ ونحوَهُ من المكابرة والعناد والسَّفه[26]، وهذه القراءة تدل على أن الخبر فيه كناية عن الوعيد بعقوبتهم عمَّا اقترفوا من مخالفتهم للمؤمنين. والذي لا يغفل عن عملٍ أولئك المخالفين لا يَغفل عن عمل الذين تحولوا إلى القبلة الجديدة، فيجازي كلاً بما يستحق.

القراءة الثانية: قراءةُ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبي جعفر ورَوْح عن يعقوب بتاء الخطاب (تعملون)[27]، والضميرُ راجع إلى المؤمنين، فهو كناية عن الوعد لهم على امتثالهم لاستقبال الكعبة[28]، والدليلُ عليه قوله: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾، ويحتمل أن يراد به أهل الكتاب، فيكون الأسلوب من باب الالتفات، ووجهه أنَّ في خطابِهم بأن الله لا يغفل عن أعمالهم، تحريكاً لهم بأن يعملوا بما علموا من الحق؛ لأن المواجهة بالشيء تقتضي شدة الإنكار وعظم الشيء الذي ينكر[29].

المطلب الثاني: وجوهُ الأشقياء في الدُّنيا

تنوَّعت وجوه الأشقياء في الحياة الدنيا إلى: وجوه حزينة مسودة، ووجوه كارهة للحق، ووجوه مهانة مقهورة، ووجوه تائهة حائرة.

أولاً: الوجوه الحزينة المُسْوَدَّة

ورد في القرآن الكريم من هذا النوع آيتان أتناولهما وفق السياق الآتي:

1. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل: 58].

25- ينظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، دار الكتب العلمية، بيروت2: 223، والكشف عن وجوه القراءات وعللها وحججها، مكي بن أبي طالب، تحقيق: محيي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة، ط2، 1981م1: 268.

26- ينظر: التحرير والتنوير2: 34.

27- ينظر: النشر2: 223، والكشف عن وجوه القراءات1: 268.

28- ينظر: التحرير والتنوير2: 34.

29- ينظر: البحر المحيط1: 604.

2. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [الزخرف: 17].

التَّبشير يستعملُ في الخبرِ الذي يُغير بشرة الوجه، إمَّا بالسُّرور أو بالحزن، إلاَّ أنَّه اختصَّ في عرف الاستعمَال اللغوي في الخبر الذي يُفيد السرور، «ومعلوم أن السرور كما يوجب تغير البشرة، فكذلك الحزن يوجبه، فوجب أن تكون لفظة التبشير حقيقة في القسمين، ويتأكد هذا بقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران: 21] ومنهم مَن قال: المراد بالتبشير ههنا الإخبار، والقول الأول أدخل في التحقيق»[30].

والتَّعبيرُ بالبشارة يفيدُ تعريضًا بالتهكّم بهم؛ إذ يعُدون البشارة مُصيبة؛ بسببِ تحريفهم الحقائق، والتّعريضُ من أقسامِ الكناية، والكنايةُ تُجامع الحقيقة في بعض الآراء[31].

وقوله: ﴿بِٱلْأُنثَىٰ﴾ فيه الحذفٌ، تقديره: بولادةِ الأنثى، وهو من حذف المضاف، والغرض من حذفه الإيجاز.

أمَّا قوله: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ فيفيد أنه يصيرُ مُتغيّرًا تغير مغتم، ويُقال لمن لقي مكروهًا: قد اسوَدَّ وجهكَ غمًّا وحزنًا[32]، «واسوداد الوجه: مستعمل في لون وجه الكئيبِ إذ ترهقه غبرة، فشبّهت بالسّواد؛ مبالغة»[33]، أو أنَّ اسودادَ الوجهِ فيه كناية عن الغم؛ لأن الإنسانَ إذَا قوي فرحهُ انشرحَ صدرهُ وانبسطَ قلبه مِن داخلِ القلبِ، ووصلَ إلى أطراف جسمه، ولا سيما إلى الوجهِ؛ لأن بينهُما تعلقًا شديدًا، وإذا وصل الروح إلى ظاهر الوجه، أشرق الوجه وتلألأ واستنار، وأما إذا قويَ غمّ الإنسان احتقن الروح في باطن القلب، ولم يبق منه أثر قوي في ظاهر الوجه، فثبت أنَّ من لوازم الفرح استنارة الوجه وإشراقه، ومن لوازم الغم كمودة الوجه وغبرته

30- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م 20: 45.

31- ينظر: التحرير والتنوير14: 184.

32- ينظر: مفاتيح الغيب20: 45.

33- التحرير والتنوير14: 184.

وسواده، فلهذا السبب جعل بياض الوجه وإشراقه كناية عن الفرح، وغبرته وكمُودته وسوداه كناية عن الغمِّ والحزن والكراهية[34].

أمَّا الآية الثانية التي تبين الوجوه الحزينة، فهي قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [الزخرف: 17]، وقد سبقها قوله تعالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴾ [الزخرف: 16]، والمعنى: أأتّخذ مما يخلق بنات الله وأصفاكم بالبنين في حال أنكم إذا بُشّر أحدكم بما ضربه للرحمن مثلاً ظَلَّ وجهه مسودًّا، ومقتضى الظَاهر أن يؤتى بضمير الخطاب في قوله: ﴿ أَحَدُهُم ﴾ ولكنه عدل إلى ضمير الغيبة على طريق الالتفات؛ ليكونوا محكيًّا حالهم إلى غيرهم؛ والغرض التعْجيب من فساد مقالتِهم، والتشنيع بها؛ لأنهم نَسبُوا لله البنات دون الذّكور، وهو نقصٌ، لا يليق به تعالى[35].

واستعمال البشارة في مثل هذا الأسلوب القرآني يفيد التهكّم بهم، كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ لأنَّ البشارة في الأصل اللغوي أن تكون فيما يسر، وجاءت في هذا القول الكريم لما يسوء؛ وذلك على طريقة الكناية عن صفة الغم والحزن.

ثانيًا: الوجوه الكارهة للحق

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [الحج: 72].

أخبر الله عن المشركين أنه إذا تُليت عليهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله، والإيمان برسله، تتغير وجوههم، وتعرف فيها الإنكار والغضب والتجهّم.

والآيات المتلوَّة هي القرآن، « ووصفها بأنها بيِّنات لكونها متضمنة للدلائل

34- ينظر: مفاتيح الغيب20: 45.

35- ينظر: التحرير والتنوير25: 179.

العقلية وبيان الأحكام»[36]، وقيدها بهذا الوصف؛ «لتفظيع إنكارها إيَّاها، إذ ليس فيها ما يعذر به منكروها»[37].

وهذه الآيات عندما تُتلى عليهم تظهرُ على وجوهِ الذين كفروا علامات الكراهة للحق، والمعنى: «أنهم يلوح على وجوههم الغَيْظ والغضب عندما يُتلى عليهم القرآن ويُدعون إلى الإيمان، وهذا كنايةٌ عنِ امتلاءِ نفوسِهم منَ الإنكارِ والغيظِ حتَّى تجاوز أثره بواطنهم فظهر على وجوههم»[38].

والسُّطُوّ: البطْش؛ قالَ الفرَّاء[39] والزجَّاج[40]: السُّطُوُّ شدةُ البطش والوثُوب، والمعنَى: يهمون بالبطَشِ والوثوبِ؛ تعظيمًا لإنكارِ ما خوطبوا بِه[41].

وتعظيم إنكارهم وتمردهم على الأنبياء والمؤمنين حكاهُ تعالى، ثم أمرَ رسولَهُ بأنْ يقابلهم بالوعيد فقال: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۚ النَّارُ﴾.

ومن دقائق الآية أن هذا الأمر بدأهُ بالاستفهامِ الذي يُفيد الاستئذان التَّهكمي؛ لأنه قد نبأهم بذلك دون أن ينتظر جوابهم[42].

وقوله: ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: بئس مصيرهم هيَ، فحرفُ التعريف عوضٌ عن المضاف إليه، فتكون الجملة إنشاءَ ذمٍّ، معطوفةً على جملة الحال على تقدير القول، ويجوز أن يكون التعريف للجنس فيفيد العموم؛ أي: بئسَ المصير هيَ لمن صار إليها، فتكون الجملة تذييلاً لما فيها من عموم الحكم للمخاطبين وغيرهم، وتكون الواو اعتراضية تذييلية[43].

36- مفاتيح الغيب23: 59.

37- التحرير والتنوير17: 335.

38- التحرير والتنوير17: 334.

39- ينظر: معاني القرآن، عالم الكتب، ط3، 1981م 2: 230.

40- ينظر: معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: د. عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، ط1، 1988م 3: 438.

41- ينظر: مفاتيح الغيب23: 59.

42- ينظر: التحرير والتنوير17: 336.

43- ينظر: المصدر السابق17: 337.

ثالثًا: الوجُوهُ المُهَانة المقهُورة

قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾ [الإسراء: 7].

المعنى: إن أحسنتم يا بني إسرائيل، كان جزاؤكم حسنًا ومقبولاً، وإنْ أسأتم فإن إسَاءتكم لا تكون إلا لكم، فإننا أهلكنا مَن قبلكم بذنوبهم، ولكننا أحسنَّا إليكم بتوبتِكم، ولذلك احذروا الإساءةَ لكي لا نهلككم كما أهلكنا الذين من قبلكم، وتظهر علامات المساءة على وجوهكم.

في هذه الآية فوائد بلاغية جليلة، منها أنَّ أسلوب إعادة الفعل عندَ إرادة تعلّق شيء به أسلوبٌ عربيٌّ فصيح، الغرض منه الاهتمام بذلك الفعل، وقد تكرَّر هذا الأسلوب في القرآن كثيراً، منه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: 130][44]، أو لغرض الإطناب؛ لأن فيه فائدة تتمثل في زيادةِ الإيضاح؛ إذ نلمس في الإعادةِ تنويهًا بالإحسان، وتوكيدًا له.

كما أن قولَه: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ﴾ جاء على طريقة التَّجْريد الذي يأتي على سبيل المبالغة، وذلك «بأن جعلت نفس المحسن كذاتٍ يحسن لها»[45]، وفي الآية اختصاص الإحسان والإساءة بالنفس، فالنفع والضرر لا يتعدى إلى غيركم.

ومعنى: ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾: «ليجعلُوها باديةً آثار المسَاءة والكآبة فيها»[46]؛ لأن مجيء الفرح والسرور والغم والحزن يظهر على وجه صاحبه، دُون بقيَّةِ أعضاء الجسدِ.

ودخُول المسجدِ كان دخولَ غزْو، بدليلِ التَّشبيه الوارد في قوله: ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. والتَّتبير: التَّدمير والإهلاك والإفساد[47]، وقد جاء بالمصدر

44- ينظر: التحرير والتنوير15: 34.
45- المصدر السابق نفسه.
46- الكشاف2: 608.
47- لسان العرب4: 88 (تبر).

﴿تَبِّيرًا﴾ ليُحقِّقَ الخبرَ، ويزيلَ الشكَّ، «وأطلق التَّتْبيرُ على الإهلاك، على طريقة الاستعارة: تبعيَّةً في (تَبَّرْنَا) وأصليَّةً في ﴿تَبِّيرًا﴾»[48]، والعُلوُّ في قولِه: ﴿مَاعَلَوْاْ﴾ «علوٌّ مَجازيٌّ، وهو الاستيلاء والغلب»[49].

رابعًا: الوجُوهُ التَّائِهَةُ الحائِرة

قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: 22].

قال ابنُ كثير في تفسير هذه الآية: «هذا مثلٌ ضربهُ الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثلِ مَنْ يمشي مُكبًّا على وجهه؛ أي: يمشي مُنحنيًا لا مستويًا على وجهِه، أي: لا يدري أين يسلكُ ولا كيف يذهب، بلْ تائهٌ حائرٌ ضالٌّ»[50].

بدأت الآية بالاستفهام في قوله: ﴿أَفَمَن﴾ الذي يفيد التقرير، وفيه كنايةٌ عن عدم التساوي بينَ الفريقين.

والمُكِبُّ: اسم فاعل مِنْ: أكَبَّ، إذا صار ذا كَبّ[51]، و﴿أَهْدَىٰٓ﴾ مشتق من الهُدَى، وهو معرفة الطريق، وهو اسم تفضيل مسلوب المفاضلة؛ لأن الذي يمشي مكبًّا على وجهه لا شيء عنده من الاهتداء، وهذا لا يخلو من غرض التَّهكُّم. والسويّ: الشديد الاستواء على وزن (فَعِيلٌ) بمعنى: (فاعل)[52].

تشتمل الآية على ثلاث استعارات تمثيلية:

1. قوله: ﴿يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ شبَّه حالَ المُشرك التَّائه الحائِر في أمره بين الآلهة؛ طلباً للذي ينفعهُ منها، بحالِ السَّائرِ قاصدًا أرضًا مُعيَّنة، ليست لها طريق

48- التحرير والتنوير19: 29.

49- المصدر السابق نفسه 15: 37.

50- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1999م 8: 181.

51- ينظر: التحرير والتنوير29: 46.

52- ينظر: المصدر السابق نفسه.

محددة، فالتبس عليه الأمر حائراً متوسّمًا، يتعرف آثار أقدام الناس وأخْفاف الإبل، فيعلم بها أن الطريقَ مسلوكة أو متروكة، وهذا على نهج الاستعارة التمثيلية.

2. وفي ضمن هذه التمثيلية تمثيلية أخرى مبنيَّة عليها بقوله: ﴿مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ إذ شبَّه حالَ المتحيّر الطالب آثارَ الناس والدواب في الأرض، بحالِ المُكِبِّ على وجهه في شدة اقترابِه من الأرضِ.
3. وقوله: ﴿أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾ شبَّه حال الذي آمن بربٍّ واحدٍ، بحال الماشي في طريق جادة واضحةٍ، لا ينظر إلاّ إلى اتجاهِ وجهِه، فهو مُستو في سَيره.

وقد حصل في الآية إيجاز حذف، إذ استغني عن وصف الطريق بالالتواء في التمثيل الأول؛ لدلالة مقابلته بالاستقامة في التمثيل الثاني[53].

المبحث الثاني: تنوع وجوه الناس في الآخرة

تعدَّدت مشاهدُ يوم القيامة وتلوَّنت بسياقاتِها المختلفة الواردة في القرآن، فقد تناولت أحوالَ وجُوه الناس، فكانَ منها: الوجُوه السَّعيدة، والوجوهُ الشقيَّة، وهذا التنوع نعرضُ له من خلالِ السياق الآتي:

المطلب الأول: وجوه السعداء في الآخرة

تنوَّعت وجوه السّعداء في الآخرة إلى: وجُوهٍ مُشرقة فرِحة، ووجوهٍ مبيضة، ووجوه نضرة، ووجوه ناعمة. وفيما يلي نعرضُ لدلالاتِ كلٍّ منها:

أولاً: الوجوهُ المُشرقة الفَرِحة

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: 38-39].

أَسْفَرَ: أَشْرَقَ[54]، قال الفراء: مشرقة مضيئة[55]، فهذه الوجوه تظهر يوم

53- ينظر: التحرير والتنوير.
54- ينظر: لسان العرب4: 367 (سفر).
55- ينظر: معاني القرآن3: 239.

القيامة مسرورة فرحة، والبشر ظاهرٌ على وجوه أصحابها في الجنة.

أبرزت الآيتان -على قِصَرهما- أغراضًا بلاغية، منها أن التنكير في (وجوه) جاء للتَّنويع، ومنها أنه قدَّم وجوهَ أهلِ النعيم على وجوهِ أهل الجحيم؛ لأن سِياقَ السورة جاءَ من أجلِ «التنويه بشأن رجلٍ من أفاضلِ المؤمنين، وهو ابن أمٍّ مكتوم، والتَّحقيرِ لشأن عظيمٍ من صناديدِ المشركين، فكانَ حظُّ الفريقين مقصودًا مسوقًا إليه الكلامَ، وكَان حظُّ المؤمنين هو المُلْتفت إليه ابتداءً، وذلك من قوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ [عبس: 3] إلى آخره، ثمَّ قوله: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ [عبس: 5-6]»[56]، ومنها أنه وصف الوجوه بأنها ﴿ضَاحِكَةٌ﴾ وفيه كناية عن السرور، أو أنَّ الوجوه كناية عن الذوات، كقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: 27]. و﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ معناه: فَرِحة، «والسين والتاء فيه للمبالغة»[57].

وأسند الضحكَ والاستبشار إلى الوجوهِ على سبيلِ المجاز العقلي، الذي علاقته المكانية، والقرينة: أن الوجوه محلّ لظهورِ الضحك والاستبشار.

ثانيًا: الوجوهُ المبيضة

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: 106-107].

تصوِّرُ الآيتان مشهداً من مشاهدِ القيامة، حيثُ نرى فيه مظهراً عجبًا، نرى وجوهًا مبْيَضَّة ووجوهًا مسْوَدَّة، وهذا مشهدٌ حِسِّيٌّ، ولكنه منبعثٌ عن تأثر نفسي، ألقى ظله على هذه الوجوه فابيضت، وعلى تلك فاسودت، وهذا وذلك زيادةٌ في العذاب والنعيم وفي التحقيرِ والتكريم[58].

اختُلِفَ في زمن ابيضاض الوجُوه على أقوال: قيل: إنَّ زمنه عندما يُبعثُ الناس من قبورهم، فتكون وجوه المؤمنين مُبيضّةً، وقيل: إن ذلك عند قراءة

56- التحرير والتنوير30: 138.

57- المصدر السابق نفسه.

58- ينظر: مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، (د، ت): 203.

الكتاب، إذا قرأ المؤمنُ كتابه، ورأى فيه حسناته استبشر وابيض وجهُه، وقيل: إنَّ ذلك عند الميزان فإذا رجحت حسنات المؤمن ابيضَّ وجهه[59]، وهذا الاختلاف يقودنا إلى أن هذا اليوم قد شُوّق وهُول من أمره، بدليل تعريفِ اليوم بحصول بياض وجوهٍ وسوادِ وجوهٍ فيه، لغرض التهويل لأمره، والتشويق لما يرد بعده من تفصيل أصحاب الوجوه المبيضّة، والوجوه المسودّة: ترهيبًا لفريق وترغيبًا لفريق آخر[60]. وبياضُ الوجهِ كناية عن ظهور بهجةِ السرور.

ذكر في بداية الآية البياض ثمَّ السواد، وذلك عندما قال: ﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ ﴾ فقدَّم البياضَ على السواد، ثمَّ لمَّا شرع في بيان حكم هذين القسمين قدَّم حُكْمَ السواد، وكان حقُّ الترتيبِ أن يُقدِّمَ حكمَ البيَاض؛ وذلك لأنَّ الواوَ للجمْعِ المطلق لا للترتيبِ، ولأن المقصودَ من الخلق إيصال الرحمة لا إيصال العذاب، ولذلك ابتدأ بذكر أهل الثواب وهم أهل البياض؛ لأن تقديم الأشرف على الأخَسِّ في الذكر أحسن، ثمَّ ختَم بذكرهم أيضًا تَنْبيهًا على أنَّ إرادة الرَّحمة أكثر منْ إرادةِ الغضَبِ، كما قال: «سبقت رحمتي غضبي»[61].

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ ﴾ تفصيلٌ للإجمال الذي أتَى في قولِه: ﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ ﴾ سُلك فيه طريق اللفّ والنَّشْرَ غير المرتب؛ تنبيهًا على أن إرادة الرحمة أكثر من إرادة الغضب.

وفيهِ إيجازٌ؛ لأنّ أصل الكلام: «فأمّا الَّذين اسودّت وجوههم فهم الكافرون، يقال لهم: أكفرتم ... وأمّا الَّذين ابيضّت وجوههم فهم المؤمنون، وفي رحمة الله هم فيها خالدون»[62].

59- ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، 2003م4: 166.

60- ينظر: التحرير والتنوير4: 44.

61- ينظر: مفاتيح الغيب8: 150، والحديث رواه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، الحديث رقم: 7422. ولفظه: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « إِنَّ اللَّهَ لَمَّا قَضَى الْخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي».

62- ينظر: التحرير والتنوير4: 44.

وقوله: ﴿أَكَفَرْتُم﴾ مقُولُ قول محذوف، يحذف مثله في الكلام لظهوره؛ لأنّ الاستفهامَ لا يصدر إلاّ من مُسْتفهمٍ، وهذا المستفهم يحتمل أن يكون مجهولاً؛ لأنه لم يتقدّم ما يدّل عليه، والهمزة للإنكار التَّوبيخي والتعجيب من حال المرتدين أو أهل الكتاب الذين كفروا برسول الله ﷺ بعد إيمانهم به قبل مبعثِه، أو جميع الكفار الذين كفروا بعدما أقروا بالإسلام، حين أشهدهم على أنفسهم أو تمكنوا من الإيمان بالنظر في الدلائل والآيات[63]، وذكر ابن عاشور احتمال أن يُراد بالقائل أهل المحشر لهم، وهنا يكون الاستفهام على حقيقتِه، مع كنايته عن معنى التعجّب، وإذا كان القائل هو الله فالاستفهام مجازٌ عن الإنكار والتغليظ[64].

وعبَّر بالرحمةِ بدلاً عن الجنة على سبيل المجاز المرسل، وذلك بإطلاق الحال وإرادة المحل؛ لأنها مكان تنزل الرحمة، وقد أفاد هذا المجاز تصحيحًا لما يظنه المؤمن من أن ما يقدمه من عمل هو سبب دخوله الجنة، فلما جيء بالرحمة بدلاً من الجنة رفع هذا الوهم بالإشارة إلى أن العبد وإن كثرت طاعته وعبادته، فإنه لا يدخل الجنة بعمله ولكن برحمة الله تعالى، كما أنَّه لم يُضف العذاب إلى نفسِه في قوله: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ ولكنه أضافَ الرَّحمةَ إلى نفسِه عندما قال: ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ وذكر الخلود في جانب الثواب، وتركه مع العذاب، ولما ذكر العذاب علله بفعلهم، وهذا يُشعر بأن جانب الرحمة مغلب على العقاب[65].

وفي الآيتين وصفَ الذين اسودَّت وجوههم بأنهم الذين كفروا، ووصف الذين ابيضت وجوههم بأنهم في رحمة الله، فحصلَ بذلك احْتِباكٌ؛ حيث إنَّ « إثبات الكفر أولاً يدلُّ على إرادةِ الإيمان ثانيًا، وإثبات الرحمة ثانيًا يدلُّ على حذفِ اللعنةَ أولاً »[66] ومن هذا الاحتباك يكونُ التقدير: فأمَّا الذين اسوَدَّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم، فادخلوا في لعنتي، وذوقوا العذاب بما كنتم

63- ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، دار الفكر، بيروت (د، ت)1: 77.

64- ينظر: التحرير والتنوير4: 45.

65- ينظر: مفاتيح الغيب8: 152، والبحر المحيط3: 28.

66- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2002م 2: 132.

تكفرون، وأمَّا الذين ابيضت وجوههم فهم الذين آمنوا، وهم في رحمة الله هم فيها خالدون.

ثالثاً: الوجُوه النَّضِرة

- قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: 22-23].
- قال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: 24].

جاءت الآيةُ الأولى تسليةً للمؤمنين الصَّابرين، وبشارةً لهم برؤيةِ ربهم يوم القيامة؛ لتخفِّف عنهم أحزانَهم ومعاناتهم في مكة، إذ يستبشرون بهذه النعمة العظيمة منه سبحانه وتعالى. فالنَّاضرَةُ: مِن النَّضْرَةِ، وهي: التنعُّمُ والعَيْش والغِنى، وقيل: الحُسْن والرَّوْنَق، وقد نَضَرَ الشجرُ والورقُ والوَجه واللونُ، وكل شيء يَنْضُر نَضْراً، فهو ناضِر؛ أَي: حَسَن[67].

قال السمين الحلبي: «والمعنى: أنَّ الوجوهَ الحسنة يومَ القيامة ناظرةٌ إلى اللَّهِ تعالى، وهذا معنىً صحيحٌ وتخريجٌ سَهْلٌ»[68].

وجاء تنكير ﴿وُجُوهٌ﴾ للتنويع والتقسيم[69]، ولعل الدليل على ذلك مسوغ الابتداء بالنكرة؛ لأنه أُريد التفصيل والتقسيم لمقابلتِه بقوله بعد ذلك: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ [القيامة: 24] وقيل: للتكثير؛ أي: وجوهٌ كثيرة[70]. وكُني بنضرة الوجوهِ عن فرح أصحابها ونعيمِهم. وفي تقديم شبه الجملة (الجار والمجرور) على عامله اهتمام بهذا العطاء العجيب، وليس للاختصاص؛ لأنهم يرون بهجات كثيرة في الجنة[71].

67- ينظر: لسان العرب5: 210 (نضر).

68- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق (د، ت) 10: 574.

69- ينظر: التحرير والتنوير29: 352.

70- ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د، ت)29: 144.

71- ينظر: التحرير والتنوير 29: 355.

وفي الآية جناسٌ مُحرَّفٌ، وهو بينَ قوله: ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ وقوله: ﴿نَاظِرَةٌ﴾[72] أفادَ بأنَّ نضارة هذه الوجوه وجمالها كان بسببِ النَّظرِ إلى وجهه الكريم، فهي نضرةٌ وفرحة في النظر إليه، وهذا من أثر النعمة والفرح؛ لأنَّ ما يحصل في النفس من الانفعالات يظهر أثره على الوجه.

قال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾.

أي: أنَّ هذه الوجوه يوم القيامة تَعرفُ فيها البهجةَ والرونق والحسن والبريق، وإضافة ﴿نَضْرَةَ﴾ إلى ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ من إضافةِ المُسبِّب إلى السَّببِ؛ أي: النضرة والبهجة التي تكون لوجه المسرور الراضي، إذْ تبدو على وجهه ملامح السرور[73].

وفي التعبير بنضرةِ النَّعيمِ صورةٌ بيانيَّةٌ تتجلَّى في الكِنايةِ عن وفرةِ نعيمِهم وفرْطِ مسرّتهم به[74].

رابعاً: الوجوه الناعمة

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ [الغاشية: 8].

جاءت هذه الآية أيضًا في بيان حال أهلِ الجنة، والمعنى: أنَّها وجُوهٌ ذات بهجةٍ وحسن. قال ابنُ منظور: والناعِمةُ: الحسنةُ العيشِ والغِذاءِ المُتْرَفة، ومنه الحديث: « إنها لَطَيْرٌ ناعِمةٌ »[75]؛ أي: سِمانٌ مُتْرَفةٌ[76].

وفي الآيةِ مِنْ وجُوه الحسن أنها جاءت كناية عن بهجتِهم وحسنِ منظرهم، وإطلاقُ الوجوه هنا -والمرادُ بهم الذَّوات كلّها- هو من إطلاقِ اسم الجزءِ على الكلِّ؛ على طريقة المجاز المرسل، وذلك للإشارة إلى أنّ هذه الوجوه هي التي

72- ينظر: المصدر السابق 29: 356.

73- ينظر: المصدر السابق 30: 205.

74- ينظر: التحرير والتنوير17: 334.

75- رواه الإمام أحمد في مسنده، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، ط2، 1999م21: 30، رقم الحديث: 1336، وهو بلفظ: « ... فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ تِلْكَ لَطَيْرٌ نَاعِمَةٌ ».

76- ينظر: لسان العرب12: 579 (نعم).

تظهرُ عليها علاماتُ السُّرور من أثر النعيمِ.

المطلب الثاني: وجُوه الأشْقياءِ في الآخرة

تنوَّعت وجُوه الأشقياء في الآخرة إلى: وجوهٍ مقهُورة ذَليلة، ووجوهٍ مسودَّة، ووجوهٍ باسِرة، ووجوهٍ قبيحة كئيبة، ووجوه خاضعة خاشعة. وفيما يلي نعرض لدلالات كل منها، وفق الآتي:

أولاً: الوجوه المقهورة الذليلة

قال تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا﴾ [طه: 111].

العنت في اللغة: دُخُولُ المَشَقَّةِ على الإنسان، ولقاءُ الشدَّة، والعَنَتُ: الهَلاكُ، وأَعْنَتَه: أَوْقَعَه في الهَلَكة[77]، وقيل: هو القهر والغلبة، ومنه: فُتِحت البلاد عُنوة؛ أي: غلبةً[78]. قال الشاعر:

فَمَا أَخَذُوها عَنْوةً عنْ مَوَدَّة ولكِنَّ ضَرْبَ المَشْرَفيّ اسْتقَالَهَا[79]

وقيل: هو مأخوذ من لفظ (العنو)؛ أي: أخذوا العاني، وهو الأسير، يُقال: عَنَا يَعْنُو عناءً، إذا صار أسيراً[80].

قال البيضاوي: «ذلَّت وخَضعت له خضوع العناة، وهم الأسارى في يد الملك القهار»[81]. قال أمية بن أبي الصَّلت:

مَلِيكٌ على عَرْشِ السماء مُهَيْمِنٌ لِعِزَّته تَعْنُو الوُجوهُ وتَسْجُدُ[82]

77- ينظر: لسان العرب 2: 61 (عنت).

78- ينظر: الجامع لأحكام القرآن11: 249.

79- البيت من الطويل، لكثير عزة في ديوانه، جمع: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1971م: 80، وروي فيه: (بحدٍّ) بدل (ضرب) والمعنى: لم يسلّموها طائعين عن مودة وانشراح صدر؛ ولكن كارهين عن غلبةٍ وقهر.

80- ينظر: مفاتيح الغيب22: 104.

81- أنوار التنزيل وأسرار التأويل4: 71.

82- البيت من الطويل، في ديوانه، جمع وتحقيق: د. سجيع جميل الجبيلي، دار صادر، بيروت، =

وقال ابنُ عباس: ﴿وَعَنَتِ﴾: ذلَّت، وقالَ مُجاهد: خَشَعت، والفرقُ بين الذل والخشوع -وإن تقاربَ معناهما- أنَّ الذلَّ أن يكون ذليلَ النفسِ، والخشوعُ أن يتذلل لذي طاعة(83).

واختلف في المرادِ بالوجوهِ هُنا على وجْهينِ:

1. قيل: إنها وجوه العصاة، وإنهم إذا عاينُوا يوم القيامة الخيبةَ والشقوة وسوء الحساب، صارت وجوههم عانية؛ أي: ذليلة خاشعة، مثل وجوه العُنَاة وهم الأسَارى(84)، ولمَّا كانت الوجوه في هذه الحالة ترهقُها ذلة أُسندَ العناءُ إليها على سبيل المجاز العقلي، لتُصبح الجملة كلها بعد ذلك تمثيلاً لحال المجرمين الذين ورد الكلام عليهم في قوله: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: 102] «فاللاّم في الوجوه عوضٌ عن المضاف إليه؛ أي: وجوههم، كقولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: 39] أي: لهم»(85).
2. وقيل: إنها عموم الوجُوه؛ أي: وجوه الخلائق(86)، وبذلك يكون التعريف في الوجوه للعموم، ويراد بـ(عنت) خضعت؛ أي: خضع جميع الناس إجلالاً لله تعالى(87).

ولعلَّ أرجَح الرأيين هو أنه يراد بها وجوه المجرمين، واللام بدلُ الإضافة، ويؤيده قوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ «وهو يحتمل الحال والاستئناف؛ لبيان ما لأجلِه عَنَت وجوههم»(88).

وذكر الله -تعالى- الوجُوهَ، وأرادَ بها المكلفين أنفسَهم؛ لأن قوله: ﴿وَعَنَتِ﴾ من صفات المكلفين؛ لا من صفات الوجوه، وإنما خص الوجوه بالذكر؛ لأن

=

ط1، 1998م: 39.

83- ينظر: الجامع لأحكام القرآن11: 248.

84- ينظر: الكشاف3: 89.

85- التحرير والتنوير16: 311-312.

86- ينظر: البحر المحيط 6: 260.

87- ينظر: التحرير والتنوير16: 312.

88- أنوار التنزيل4: 72.

الخضوع بها يبين وفيها يظهر[89]، ولأنها أشرف أعضاء الجسم، وآثار الذل أوَّل ما تظهر فيها.

وجملة ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ إما مُعترضة في آخر الكلام، تفيد التعليل، إنْ جُعل التعريف في الوجوه عوضًا عن المضاف إليه؛ أَي: وجوه المجرمين. والمعنى: إذ قد خاب كلّ من حمل ظلماً؛ وإما احتراسٌ لبيان اختلاف عاقبة عناء الوجوه، فمن حمل ظلمًا فقد خابَ يومئذٍ واستمرَّ عناؤه، ومَنْ عمل صالحاً عاد عليه ذلكَ الخوفُ بالأمْنِ والفَرحِ[90].

ثانيًا: الوجوه المسودَّة

- قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [آل عمران: 106].
- قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس: 27].
- قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر: 60].

1. قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [آل عمران: 106].

قال ابن كثير: « إخبارٌ عن سوادِ وجوهِهم في الدَّار الآخرة »[91].

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ فيه تفصيلٌ بعد الإجمال السابق، جاء على طريقة النَّشْر المعكوس[92]؛ لأن المقام مقام ترهيب.

89- ينظر: مفاتيح الغيب22: 104.
90- ينظر: التحرير والتنوير16: 312.
91- تفسير القرآن العظيم4: 264.
92- ينظر: التحرير والتنوير4: 44.

وفيه إيجاز بحذفِ جوابِ أَمَّا، وأصل الكلام: « فأمّا الَّذين اسودّت وجوههم فهم الكافرون »، أو: « فأمّا الَّذين اسودّت وجوههم، فيقال لهم: أكفرتم بعْد إيمانكم »، وداعي تقديم العذاب: التعجيل في الإساءة إليهم.

ولا تخفى جماليَّةُ الاستعارة التهكمية في قوله: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ لأنه أسلوب أمر جاء مفيداً الإهانة؛ لأن أصل الذوق أن يكون باللسان، وباختيار صاحبه، ولكنه في الآية جاء بذوق العذاب، وهم لا يطيقونه على وجه الإهانة والتهكم، ففي الذوق استعارة تبعية؛ لأنها جاءت في الفعل، وفي العذاب استعارة مكنية؛ لأنه شبه العذاب بشيء يُذاق، ويُدْرَكُ بحاسَّةِ الأكل والذوق، وإثبات الذوق له تخييلٌ.

وأفادَ الطباق بين (تبيض وتسود) و(اسودت وابيضت) رسم صورة وجوه المؤمنين والكافرين، فوجوه المؤمنين تكون في أجمل صورة وأكرمها وأشرفها؛ أما وجوه الكافرين فهي في أبشع صورة.

وظهور اللون الأسود مرتين في الآية -وذلك عبر المضارع (تسودّ) والماضي (اسودّت)- يحمل دلالات واضحة على أنَّ هناك الحالة النفسية للكافرين تعبةٌ وتعيسة، بدليل ظهورها على وجوههم.

2. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [يونس: 27].

عطف جملة: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ على جملة: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس: 26] قال أبو السعود: « وترهقهم ذلة، وأيّ ذلة كما ينبئ عنه التنوين التفخيمي »[93]، وفي الآية حذف مضاف؛ للإيجاز، وذلك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾؛ أي: وجزاء الذين كسبوا.

وعبَّر عن المُسيئين بفعلِ ﴿كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ دونَ فعل (أساءوا) الذي عبَّر به في جانب الذين أحسنوا؛ للإشارة إلى أن إساءتهم من فِعلهم وسعيهم، فما ظلمهم

93- إرشاد العقل السليم4: 139.

الله، ولكن أنفسهم يظلمون[94].

وجاءَ تَنْكيرُ ﴿سَيِّئَةٍ﴾ لإفادة العموم؛ أي: جزاء كلّ سيئة بمثلها، «وهو وإنْ كان في سياق الإثبات، فالعموم مستفادٌ من المقام، وهو مقام عموم المبتدأ»[95].

وفي إسنادِ الرَّهقِ إلى أنفسِهم دونَ وجوههم؛ إيذانٌ بأنها محيطةٌ بهم، غاشيةٌ لهم جميعاً[96]. وفي التعبير بالرَّهقِ كنايةٌ عن الهوانِ والتَّحقير.

ثم اقتصرَ بعد الرَّهقِ على الذلةِ وحدها دونَ زيادة (ويَرهقهم قَتر)؛ لأنه سيجيء ما هو أشد منه، وهو قوله: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًا﴾، «ولما كانت ظلمة الليل نهايةً في السواد، شبَّه سواد وجوههم بقطعٍ مِنَ الليلِ حال اشتداد ظلمتِه»[97]، والمعنى: أنه وصف وجوههم بالسواد، حتى كأنها أُلْبِسَت سواداً مِنَ الليل.

أُغْشِيَتْ: ألبست، وجملة ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾ بيان لجملة ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾ وهو بيانَ تمثيل، أو حالٌ منَ الضَّميرِ في قولِه: ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ﴾[98].

ووصف الليل وهو زمن الظلمة بكونِه مظلمًا؛ لإفادةِ تمكّن الوصف منه، كقولهم: ليلٌ أَلْيَل، وظلٌّ ظليل، وشعرٌ شاعر، فالمُراد مِنَ الليل: الشَّديد الإظلام، باحتجاب نجومه وتمكن ظلمته. وشُبهت قَترة وجوههم بهذا الظلام[99].

3. قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: 60].

قال أبو حيان: «والظاهر أنَّ الاسوادَ حقيقة»[100]، وقال ابن عطية:

94- ينظر: التحرير والتحرير11: 147.
95- المصدر السابق 11: 148.
96- إرشاد العقل السليم4: 139.
97- البحر المحيط5: 152.
98- ينظر: التحرير والتنوير11: 148.
99- ينظر: المصدر السابق11: 149، ولسان العرب11: 607.
100- ينظر: البحر المحيط7: 419.

« ويحتمل أن يكون في العبارة تجوّز، وعبر بالسواد عن أن يراد به وجوههم، وغالب هممهم، وظاهر كآبتهم »[101]، وقال الآلوسي: « ويومَ القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة، بما ينالهم من الشدة التي تغيِّرُ ألوانَهم حقيقةً، ولا مانع من أن يُجعل سواد الوجوه حقيقةً، علامة لهم، غير مترتب على ما ينالهم، وجوز أن يكون ذلك من باب المجاز، لا أنها تكون مسودة حقيقة، بأن يُقال: إنهم لما يلحقهم من الكآبة ويظهر عليهم من آثار الجهل بالله -عز وجل- يتوهم فيهم ذلك »[102].

وبحث الرازي كيفية السواد الحاصل في وجوههم، وبيَّن أنَّ الأقربَ هو سواد مخالفٌ لسائرِ أنواع السَّواد، وهو سوادٌ يدل على الجهل بالله، والكذبِ عليه؛ لأن الجهل ظلمةٌ، وسواد قلوبهم أوجَبَ سوادَ وجوهِهم[103].

أمَّا جملة: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ فهي واقعةٌ موقعَ الاستئناف البياني لجملة: ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ لأن الكلام مبنيٌّ على ما سبقه، وكأنه بمثابة جواب عن سؤال أثاره الكلام السابق؛ لأن السامع يسأل عن سببِ اسوِدادِ وجوههم؟ فيجاب: بأنَّ في جهنم مثواهم؛ لأنَّ السواد يناسب ما سيلْفَحُ وجوهَهُم مِن مسِّ النار، فأجيبَ بطريقةِ الاستفهام التقريري، وذلك بتنزيل السائل المقدَّر منزلة مَنْ يعلم أن مثواهم جهنم، فلا يليق به أن يغفل عن مناسبة سواد وجوههم؛ لمصيرهم إلى النار[104]، ولعل الاستفهام جاء لغرض الاكتفاء؛ أي: يكفيهم عقابًا لَهُمْ مَثْواهُمْ في جَهَنَّمَ يوم القيامة، أو لغرض التهديدِ والوعيد.

ووصفهم بالمتكبرين إشارةً إلى أنَّ العقاب بتسْويدِ الوجوه مُناسبٌ لكبريائهم؛ لأن المتكبر إذا كانَ سيء الوجهِ انكسرت كبرياؤه؛ لأنَّ الكبرياء تقلّ، وبخاصة إذا شَعَر المُتكبرُ أن الناسَ يعرفونَ عيوبه ونقائصَه.

101- ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993م4: 539.

102- روح المعاني24: 19.

103- ينظر: مفاتيح الغيب27: 9.

104- ينظر: التحرير والتنوير24: 50-51.

ثالثًا: الوجوه البَاسِرة

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ [القيامة: 24].

مشهدٌ آخر من مشاهد القيامة يصور النتائج التي يحصل عليها الناس هناك، فمَنْ رجَحت حسناتُه على سيئاتِه فازَ، ودخل الجنة، ومَنْ رجَحت سيئاتُه على حسناتِه هَلَك، ودخل النار، وصار وجهه باسِراً، فالثِّقَلُ في الآخرة لا يفيدُ إلا في الأعمال الصالحة، الخالصة لوجهه الكريم.

قال ابن كثير: «هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة باسرة. قال قتادة: كالِحَةٌ. وقال السّدي: تغير ألوانها، وقال ابن زيد: ﴿بَاسِرَةٌ﴾ أي: عابِسَةٌ»[105]، وقال ابن منظور: «أَي: مُقَطِّبَةٌ قد أَيقنت أَن العذاب نازل بها، وبَسَرَ الرجلُ وَجْهَه بُسُوراً؛ أَي: كَلَح»[106]. وأعيد قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تأكيداً للاهتمام بذلك اليوم، وجاء تنكير (وُجوهٌ) لغرض مقابلتِه بقوله قبل ذلك: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: 22] أو للتكثير؛ أي: وجوهٌ كثيرة، وكنى ببَسرةِ الوجوهِ عن غمِّ أصحابها وشقائهم.

رابعًا: الوجوه القبيحة الكئيبة

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ [الملك: 27].

اختلف في المراد بالوجوه هنا، فبعضهم ذكر بأنها الذليلة الخاشعة، وبعضهم بأنها الوجوه القبيحة. قال الزمخشري: «المراد بالوجوه وجوه العصاة، وأنهم إذا عاينوا يوم القيامة الخيبةَ والشّقوةَ وسوءَ الحساب، صارت وجوههم عانية؛ أي: ذليلة خاشعة»[107]، والخشوع يكونُ بعد الذلِّ، وقال ابن عباس في معنى﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ﴾: «اسودَّت، وعَلَتْهَا الكآبةُ والقترة»[108]، وقال الزجاج: «تبين فيها السوء»[109]، وأصلُ السوء القبحُ، يُقال: ساءَ الشَّيءُ يسوءُ، فهو سَيِّءٌ إذَا قَبُحَ[110]،

105- تفسير القرآن العظيم8: 281.
106- لسان العرب 4: 57 (بسر).
107- الكشاف3: 89.
108- مفاتيح الغيب30: 66.
109- معاني القرآن وإعرابه5: 201.

فمعنَى سِيئت وجوههم: قَبُحَتْ بأنْ علَتْها الكآبة، وغشيها الكسوفُ والقترة وكلحوا، وصارتْ وجوههم كوجهِ مَن يُقاد إلى القتل[111].

جاء نظم الآية بصورة لطيفة وبإيجاز جميل في تصوير هذا الفريق في هذا المشهدِ العظيم، حيث كانت الفاءُ في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ فصيحةً؛ لأنها اقتضت جملة محذوفة تقديرها: فحلَّ بهم الوعد، فلمَّا رأوهُ سيئت وجوه الذين كفروا[112].

والضميرُ في قوله: ﴿رَأَوْهُ﴾ عائدٌ على الوعدِ، وجاء بصيغة الماضي، مع أن الوعدَ يكون في المستقبل؛ وذلك «لشبهه بالماضي في تحقق الوقوع، مثل: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 1] لأنه صادرٌ عمَّن لا إخلاف في أخباره، فإنَّ هذا الوعد لم يكن قد حصل حين نزول الآية بمكة، سواء أريد بالوعد الوعد بالبعث -كما هو مقتضى السياق- أم أُريد به وعد النصر، بقرينة قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [الملك: 25] فإنه يقتضي أنهم يقولونَه في الحال، وأنَّ الوعدَ غيرُ حاصلٍ حين قولهم؛ لأنهم يسألون عنه بـ (متى)»[113]. ولذلك صار المعنى: فإذا يرون الوعد تُساء وجوه الذين كفروا.

والزُّلفة: اسم مصدر (زَلَف)، بمعنى: القُرب، والتقدير: «فلما رأوه قربًا، ويحتمل أنه لما اشتد قربه، جعل كأنه في نفس القرب»[114]، وعلى التقدير الثاني هو للمبالغة؛ أي: رأوه شديد القرب منهم.

وسِيئت: بُني للمفعول؛ أي: ساء وجوهَهم ذلك الوعدُ، بمعنى الموعُود، وأسند حصول السُّوءِ إلى الوجوه؛ لتضمينه معنى كَلَحَتْ؛ لأنه سوءٌ شديد تظهر آثار الانفعال منه على الوجوه.

وتدَّعون -بتشديدِ الدَّال- مضارعُ ادَّعى، وقد حذفَ مفعوله؛ لظهورِه من

110- ينظر: لسان العرب1: 95 (سوأ).
111- ينظر: مفاتيح الغيب30: 66.
112- ينظر: التحرير والتنوير29: 49.
113- المصدر السابق29: 49-50.
114- مفاتيح الغيب30: 66.

قولـه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: تـدَّعون أنـه لا يكُـون، وهـو ضـربٌ مـن إيجـاز الحذف، كما في حذف القائلِ لهم؛ لأنَّ المقصـود هـو تعـيين المقـول دونَ القائـلِ، وقدَّم المجرور على (تدَّعون) للاهتمام بإخطاره، ولرعاية الفاصلة[115].

خامسًا: الوجوه الخاضعة الخاشعة

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ [الغاشية: 2-3].

من صفاتِ الوجوه يوم القيامة أنها عامِلَةٌ، من العمـل، وناصِـبَةٌ، مـن النَّصـب، وهو التعب[116]، فهما خبران لوجوه، والمرادُ بها أصحابها، وهم الكفار؛ أي: تعمـلُ أعمالاً شاقَّة يوم القيامة، تتعب فيها؛ لأنَّها «تكبَّرت عن العملِ لله في الدنيا فأعْمَلَهـا في الآخرة في نارِه، وقال عكرمة والسّدي: المعنى (عاملَـة) في الـدنيا (ناصِـبَة) يـوم القيامة، فالعملُ على هذا هو مساعي الدنيا»[117].

الوجوه هنـا مبتـدأ، جـاء نكـرة لقصـدِ التنويـع، وخَاشِـعَةٌ: خـبرهُ؛ أي: ذليلـةٌ بالعـذاب في النـار. قـال أبـو السـعود: «﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ إلى قولـه تعـالى: ﴿مَّبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: 16] استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤالٍ نشأ من الاسـتفهام التَّشـويقي، كأنه قيل من جهته عليه الصلاة والسلام: ما أتاني حـدِيثها، فمـا هـو؟ فقيـل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يـوم إذ غشـيت ذليلـة»[118]، فـالوجوهُ كنايـةٌ عـنْ أصـحابِها، وعبَّـر بالوجوهِ هنا؛ لأن حالة الوجوه تُنبئ عن حالةِ أصحابها، إذِ الوجه عنوان عمَّـا يجـده صاحبه من نعيمٍ أو شقاوةٍ، كما يُقال: خرجَ بوجهٍ غيرِ الوجْه الذي دخَلَ به، ويجـوزُ أن يجعلَ إسنادُ الخشُوع والعمل والنصَب إلى الوجـوهِ مـنْ قبيـلِ المجـاز العقلـيّ؛ أي: أصحاب وجوه[119].

وفي الآية جماليةٌ تمثلت في أوصافِ الوجوه إذ جـاءت هنـا تعريضًـا بأهـل الشقاء، بتذكيرهم بأنهم تركُوا الخشوع لله، والعمل بما أمـر بـه، والنَّصـب في القيـام

115- ينظر: التحرير والتنوير29: 50-51.
116- ينظر: لسان العرب1: 758 (نصب).
117- المحرر الوجيز5: 443.
118- إرشاد العقل السليم9: 148.
119- ينظر: التحرير والتنوير30: 295.

بطاعته، فجزاؤهم خشوعُ مذلَّةٍ، وعملُ مشقَّةٍ، ونصَبُ إرهاقٍ[120].

الخاتمة

بتأملنا في الآيات القرآنية التي وصفت الوجوه في الدنيا وفي الآخرة تبيَّن لنا بعض النتائج التي نُوجزها في الآتي:

أولاً: فيما يتعلق بالتنويع

1. أن هذه الوجوه تنوعت إلى وجوه تُعبِّرُ عن فرحِ المؤمنين وراحتهم النفسية، ووجوهٍ تُعبِّرُ عن شقاءِ الكافرين، وتعبهم النفسي.
2. ظهرت علامات الوجوه في القرآن في تسعة عشر موضعًا، وانقسمت هذه العلامات إلى قسمين:
   الأول: علامات الوجوه في الدنيا، وجاءت في سبعة مواضع، منها موضعان للوجوه السعيدة، وخمسة مواضع للوجوه الشقية.
   الآخر: علامات الوجوه في الآخرة، وجاءت في اثني عشر موضعًا، منها: خمسة مواضع للوجوه السعيدة، وسبعة مواضع للوجوه الشقية.
3. تنوعت علامات الوجوه السعيدة في المشهدين الدُّنيوي والأخروي، وتمثلت في: حسن الوجوه، وتشوقها، وإشراقها، وابيضاضها، ونضارتها، ونعومتها وضحكها.
4. تنوعت علامات الوجوه الشقية في الآخرة في المشهدين، وأظهرت: اسوداد الوجوه وحزنها، وكراهتها للحق، وقهرها، ومهانتها، وحيرتها، وكلوحها، وكآبتها.
5. للون الأسود حضورٌ كبيرٌ في العلامات التي ظهرت على الوجوه الشقية، إذ ظهر هذا اللون في موضعين في المشهد الدنيوي، وثلاثة مواضع في المشهد الأخروي، وهو متناسب مع حالة الحزن والكآبة التي تمر بأصحاب هذه

120- ينظر: المصدر السابق 30: 296.

الوجوه.

ثانيًا: فيما يتعلق بالملامح البلاغية

من السمات البلاغية الظاهرة في تنوع هذه الوجوه:

- أن القرآن استخدم غرض التَّهكم في بعضِ الآيات للوجوه الشقية، وهذا متناسب مع حالة الإنكار التي ارتضوها.
- ظهور الطباق في بعض التعابير؛ لأن فيه تبيانًا للفرقِ بين الطائفتين.
- مجيء المقابلة بين الطرفين أظهَرَ التناقض بينهما، وهذا التناقض يُوضح للمتلقي طريقي الخير والشر، فعلى الإنسان أن يتأمل بعقلِه ويختار.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية الإمام حفص عن عاصم.

1. أدب الكاتب، ابن قتيبة، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، مصر، ط4، 1963م.
2. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
3. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، دار الفكر، بيروت (د، ت).
4. البحر المحيط، أبو حيان، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001م.
5. التحرير والتنوير، ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997م.
6. التسهيل لعلوم التنزيل، الغرناطي الكلبي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1983م.
7. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1999م.
8. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م.
9. جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة.
10. الجامع الصحيح، الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
11. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، 2003م.
12. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، البغدادي، قدم له: د. محمد نبيل طريفي، إشراف: د. أميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998م.
13. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.
14. ديوان أمية بن أبي الصلت، جمع وتحقيق: د. سجيع جميل الجبيلي، دار

صادر، بيروت، ط1، 1998م.
15. ديوان كثير عزة، جمع: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1971م.
16. ديوان النابغة، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط2.
17. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د، ت).
18. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، الألباني، دار المعارف، الرياض، ط1، 1992م.
19. سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت (د، ت).
20. سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر (د، ت).
21. صحيح البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط3، 1987م.
22. صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د، ت).
23. الكتاب، سيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت.
24. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د، ت).
25. الكشف عن وجوه القراءات وعللها وحججها، مكي بن أبي طالب، تحقيق: محيي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة، ط2، 1981م.
26. لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط1 (د، ت).
27. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993م.
28. مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، ط2، 1999م.
29. مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، (د، ت).
30. معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، تحقيق: د. عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، ط1، 1988م.
31. مفردات ألفاظ القرآن، الأصفهاني، دار القلم، دمشق (د، ت).

32. مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، 1979م.
33. النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، دار الكتب العلمية، بيروت.
34. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2002م.